



مجلة النور للدراسات الإنسانية

<https://jnh.alnoor.edu.iq/>



خصائص الطباع الإنسانية في رسائل الجاحظ

حسين أحمد عباوي 

كلية التربية الأساسية، قسم اللغة العربية، جامعة تلغفر، نينوى، العراق

Article Information

Article history:
Received: 10 December 2024
Revised: 11 January 2025
Accepted: 21 January 2025

Keywords:

Human society
Al-Jahiz
secret
individual
soul

Corresponding Author

Hussein Ahmed Abawi
hussain.a.abawi@uotelafer.edu.iq

المستخلص

يعالج البحث نصوصاً مختارة من رسائل الجاحظ التي وجهت خطابها لضبط الطباع الإنسانية بغية تحقيق الفضيلة في المجتمع. وتكمن مشكلة البحث في كونه يعالج البعد العلائقي لتلك الرسائل بالمدلولات النفسية التي اشتملت عليها نظريات علم النفس الحديثة، ويهدف البحث إلى التعرف على أسلوب الجاحظ الذي اتسم بالواقعية والأصالة أمام خصائص الطباع الإنسانية إذ حللها تحليلاً نفسياً عميقاً متخذاً مبدأ الأخلاق وطباع الناس التي تولد معهم ويحملونها في حياتهم وسيلة لتحقيق هذه الغاية. ولقد اعتمدت الرؤية البحثية على المنهج النفسي بما يتلائم مع إشارات الجاحظ الذي أتى على دراسة العادات والأطوار والغرائز بروية الباحث اللبيب الذي لا تفوته شاردة ولا واردة منها، فلا يلم منها بطرف أو يقف على ناحية وإنما يعرض لها مجتمعة. لذلك فهي من هذه الناحية تصح أن تكون مصدراً وافياً في تلمس سمات عصره واجتلاء خصائصه. وقد توصل البحث إلى جملة استنتاجات إذ شملت الرسائل سياقات عدة دارت جميعها في فلك الاجتماع البشري أظهرت إدراك الجاحظ بذوق الأديب ما يتصل بالإشارات النفسية التي أخذت النصيب الأوفر من طروحاته التي تستمد قيمتها من توافرها على الواقعية وغلبة توارد الثنائيات التقابلية ما أكسب تلك الرسائل خصوصيتها التأثيرية النابعة من عمق تجربة كاتبها. تكمن قيمة البحث في كونه يشكل إضافة علمية لما سجله الجاحظ من خلال رسائله التي كتب بها إلى ذوي السلطان ممن عنت لهم الرقاب ودانت لهم النفوس بالولاء والطاعة، أما عن رغبة في اجتناء المكاسب أو رهبة من التعرض للكيد والوقية على أيديهم، سجل بها خلاصة فلسفته في النظر إلى طبيعة الاجتماع البشري على عهده.

الكلمات المفتاحية: (الاجتماع البشري _ الجاحظ _ السِّر _ المرء - النفس)

DOI: <https://doi.org/10.69513/jnhf.v4.i1.a13> ©Authors, 2026, College of Education, Alnoor University.
This is an open-access article under the CC BY 4.0 license (<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>).

Characteristics of Human Nature in the Letters of Al-Jahiz

H A Abawi



College of Basic Education, Department of Arabic Language, University of Telafer Nineveh, Iraq

Abstract

This research examines selected texts from Al-Jahiz's letters that address human nature to promote virtue in society. The core issue explored in this study is the relational aspect of these letters, with psychological meanings that align with modern psychological theories. The study aims to understand Al-Jahiz's style, marked by realism and originality in analyzing human traits. Al-Jahiz delves deeply into psychological analysis, using concepts of morality and innate characteristics as tools to achieve this goal. The research methodology draws on psychological approaches that align with Al-Jahiz's observations, reflecting a comprehensive understanding of habits, behaviours, and instincts. He didn't miss any details but considered them collectively, making his insights a rich source of understanding of his era's characteristics. The findings reveal that the letters cover various contexts primarily focused on human interaction, showcasing Al-Jahiz's literary sensitivity towards psychological insights. His works exhibit realism and often highlight contrasting dualities, which lend a unique and impactful quality to his letters, stemming from the depth of his personal experience. The value of this research lies in contributing to

our understanding of Al-Jahiz's philosophical outlook on human society during his time, as expressed in his correspondence with influential figures, driven by either the desire for gain or fear of repercussions from them..

لم تقرها على باطل وتؤمنها على شين أو تلتبس لها المبررات والمسوغات .

المقدمة:

كان ذلك قبل عشرات القرون الغابرة السابقة لهذا القرن المائل الذي اغتنى بالدراسات المسهية والمباحث المستفيضة في خصائص النفس الانسانية، إذ أبدعت الكثير من المصطلحات اللغوية التي تمس الغرائز والعادات وتعلق بالأطوار والدوافع حيث لا مناص من الافادة منها في استكناه تلك الخصائص واجتلائها من قبيل الضرورة بالنسبة للدارسين والباحثين ، ومن هنا وقع اختيارنا على نصوص مختارة من رسائل الجاحظ الذي أتى على دراسة العادات والأطوار والغرائز بروية الباحث اللبيب الذي لا تقوته شاردة ولا واردة منها ، فلا يلم منها بطرف أو يقف على ناحية وإنما يعرض لها مجتمعة .

وتكمن مشكلة البحث في كونه يعالج البعد العلاني لتلك الرسائل بالمدلولات النفسية التي اشتملت عليها نظريات علم النفس الحديث، ولذلك فهي من هذه الناحية تصح أن تكون مصدراً وافياً في تلمس سمات عصره واجتلاء خصائصه.

واعتمدت الرؤية البحثية على المنهج النفسي الذي يتلاءم مع إشارات الجاحظ وأسلوبه الذي اتسم بالواقعية والأصالة أمام مبدأ الأخلاق وطبائع الناس وما سجله من خلال تلك الرسائل التي كتب بها إلى ذوي السلطان ممن غنت لهم الرقاب ودانت لهم النفوس بالولاء والطاعة ، أما عن رغبة في اجتناء المكاسب أو رهبة من التعرض للكيد والوقية على ابيديهم ، سجل بها خلاصة فلسفته في النظر إلى طبيعة الاجتماع البشري على عهده.

الجاحظ وظرف النص

كان عصر الجاحظ حافلاً بالنقائض والأضداد ، من شك ويقين ، وحق وباطل ، ومقاومة واستسلام ، وتمسك بالدين ومحاوله في تطبيق مبادئ الفلسفة المستوردة عليه ، والنقاش حول مسائله وأحكامه بموجبه أيضاً ، فأغنى ذهنه بثقافة العصر وفرغ من استيعابها ورفد ملكاته الخصبه بمصادرها ومخبرها ، فإذا أضفنا إلى ذلك جلدته القوي على الدرس ، ومطاولته النادرة على الاجتلاء والاختبار ، ترتب على ذلك كله ، أن يجيء نتاج الجاحظ في أخريات عمره بعد طول انكباب وانفراد بنفسه على التدارس الجدي والقراءة المتأنية والكتابة المتوفرة على الاحاطة بنقائض الموضوعات ، تجسيداُ أسراً لظواهرات ذلك العصر الدابر وصورة واقعية لطبيعة الاجتماع البشري لا على عهده فحسب ، بل تعدى ذلك وتجاوز به إلى العهود اللاحقة من بعد من خلال رسائل أربع هي : (فلسفة المعاد والمعاش) و (كتمان السر وحفظ اللسان) وقد كتب بهما إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي داؤد (1) و(فلسفة الجد والهزل) وقد كتب بها إلى محمد بن عبد الملك الزيات (2) ، و(فلسفة فصل ما بين العداوة والحسد) وقد كتب بها إلى أبي عبدالله بن يحيى (3)

هاته الرسائل الأربع جمعت في كتاب وشاء محققها الفاضل الدكتور محمد علي الزعبي اطلاق عنوان الرسالة الثالثة عليه(فلسفة الجد والهزل) ، وهو – أي الجاحظ - إن كان قد خص بها أصحاب السلطان

يعد الأدب مادة لغوية تتداخل في صياغتها الفنية شتى العوامل الأخلاقية والنفسية والاجتماعية وهي في الآن نفسه انعكاس طبيعي لحركة الحياة أفراداً وجماعات وتداخلها في نسيج وجداني عاطفي ونفسي ضمن شبكة علاقات يصعب فصلها عن الواقع الحضاري والفكري والأخلاقي ، يتبارى في ميدانها الأدباء ، فمنهم من يتميز بقلبه ، ومنهم من يتفوق بعقله أو احساسه ، والجاحظ الذي نحن بصدد الكتابة عنه فقد جمع بين القلب والعقل والاحساس على مستوى الإبداع ؛ فهذا الجاحظ العينين الدميم سمات الوجه ، حتى لقد تصد عنه الأنظار وترمقه الأبصار شزراً ، ومن قبيل ذلك زهاده الخليفة العباسي المتوكل في امكان اعتماده مريباً لأولاده ومؤدياً لهم ومتكفلاً بتلقينهم مبادئ اللغة وضروب الفلسفات وجماع أحكام الدين وتشريعاته ، وصرفه من بعد بعشرة آلاف درهم على ما يذكره الرواة.

مضى المتوكل الذي استبشع منظره ، وشق عليه رؤيته، وأسفار التاريخ لا تنزه هذا الخليفة من العاب والشين ، كشأنها دائماً مع أصحاب السلطان ، بينما حفلت تلك الأسفار بما أسلفه الجاحظ للثقافة الانسانية ولل فكر العربي من مآثورات أدبية زاخرة بالصور الوجدانية الحية والماتعة التي قيضت له أن يحوز من أسباب الخلود ومقومات الشهرة مالم يرق له المتوكل من بعده ، تلك المآثورات التي استفقاها من حياة الناس الذين عاصروهم وعابشهم ومت إليهم بهذا السبب أو ذاك ، منهم ساكن القصر ومنه ساكن الكوخ ، منهم الراتع في بلهنية العيش وصفو الحياة ، ومنهم المرمض على هجير البؤس والحرمان المصطلي بلفح الشقاء والتعاسة .

لم يمر الجاحظ بهذه الحياة مرور الكرام ؛ بل عاشها واستوعبها وتمكن من استجماع شتاتها بما فيها من مباحج وأحزان، فما انفك يشيبعها درساً وتمحيصاً حتى استخلص منها خبرته في شؤون الحياة وأطوار الناس، وقد دل ذلك - عبر الحقب والعصور ولكافة الباحثين في تاريخ الثقافات والمعارف الانسانية - على أن الجاحظ الأديب الذي عاش حياته يُحَبَّر أوراقه بأسئلة الحياة مخلصاً للكلمة وللغاية التي تؤيدها ، يعد رائد الواقعية الأدبية بحق ؛ وينبغي أن لا يفهم من ذلك بحال أنه اختط لنفسه خطة مناهضة الظالمين والمفسدين على عهده كما يشام ذلك من مفهوم الواقعية الأدبية في عصرنا الحالي ، فبحسبه أنه سخر وأمعن في السخرية مما يتكلف له الناس في حياتهم إذ هم يلمسون الكمال ويجهدون في ابتغائه ، فلا يشارفون منه طرفاً أو يقتربون منه على حد ؛ سخر من البخلاء اصحاب الجمع والمنع المسرفين في اكتناز الثروات الطائلة وجمع الحطام الوفير خشية أن يحل بساحمهم الفقر ويُظَلُّ أكنافهم ، فما يوفي بهم ذلك إلا على الألام المرهقة العسيرة الاحتمال ، وما يجلوهم إلا آدمية ممسوخة وبشرية محوجة إلى نقاء الضمير وطهارة الوجدان . ورصد جماع طاقاته وكفالياته لاستجلاء أسرار النفس الانسانية الدقيقة والاحاطة بمخابرها الدفينة ، إذ هي عرضة لأن يغزوها الحقد والموجدة والشنان حيال غيرها من نفوس الناس وأطوائهم ، لاسيما حين تتعارض الرغائب وتتفاوت المشارب وتتباين الغايات، أو هي قد تشرق بالحب العميق والمودة الصافية حيالها أيضاً ، حين تتجانف الثانية عن غفلات الأولى وتغضي عن جمحاتها ، فلا تتصدى لها بنقد أو مواخذه أو تجريح ، إن

يتوسل بها عادةً لاستئارة عزم أو إلهاب حفاظ في ميدان معركة أو ساحة قتال، أو في مجال معارضة لهذا الخليفة الحاكم أو ذلك، وهدى الجماعات وتعريفها باغتصابه السلطة من مستحقيها وانفرادها بها من دونهم. غير أن ما انمازت به كنيات ابن المقفع ومأثوراته بهذا الخصوص هو من كونها تحفل باستهداف اللفظة الفصيحة لذاتها، ويجري خلفها إلى نهاية الشوط، مما يكشف بعض تزمته وكلفه بالتأنق، وهذا لا يستلزم منه مزية ريادة الأسلوب المتناسق المسترسل المحيط بشيئات موضوع مترابط طويل ومسلسل، وبداهة أن يقتصر الرائد البادي عن الإيفاء بالعرض كاملاً ويتكشف عن الوقوع في بعض سمات التقصير من أن لأن، بينما تأتي للجاحظ أن يبتدع أسلوباً متميزاً متمسماً بالتقطيع والتكرار، إذ حسب ذلك أوقع في النفس وأدل على المعنى، وأكفل بإبانة القصد، غير أنه سلم في مجمله من مزية التكلف المشين والتصنع العايب؛ فلم يجر خلف اللفظة جرياً متكلفاً ناماً به عن عجز، أو حران قلم، أو لجاجية في التصيد والابتغاء، إنما جاءت اللفظة عنده صنو المعنى موفية به على أتم وجه. وعلى هذه الشاكلة جاءت نصوص رسائله التي تصور ميله إلى جمع الشيء ونقيضه؛ وكثيراً ما تواجهنا تلك التناقضات التي لا تكاد تخو منها نصوصه، ويتجلى ذلك بعمق على مستوى الدلالة كما في مفاضلته الصمت على الكلام؛ فالكلام لا يمتلك هيبة الصمت ((واعلم أن الصمت ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة فرصته، وذلك صمتك عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عياً ولا رهبة. فليزدك في الصمت رغبة ما ترى من كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرص وهذر من أطلق لسانه بغير حاجة)) (4)

يفتتح الجاحظ نصه بفعل الأمر (اعلم) وفيه نندمج دينامية الاستجابة باعتبار أن الشيء لا يُدرك إلا بنقيضه، فتجرنا دلالة تقابل استحسان الصمت على الكلام إلى ما يستدعيه الموقف في تحقيق النفع المرتبط أساساً بطبيعة الإفصاح المباشر عن سلبية فعل الإبلاغ أمام فضيلة الصمت التي تتحقق بها هيبة المرء؛ فالجاحظ الذي قد وصف اللسان بأنه ((أداة يظهر بها البيان، وشاهد يعبر عن الضمير، وحاكم يفصل الخطاب، وناطق الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ ينهي عن القبيح)) (5) يميل - وبحسب مقام الحال - إلى إثبات الصمت والاحتباس من كثرة الكلام ويقر بصعوبة حفظ اللسان، إما كان من طبع المرء محبة الأخبار والاستخبار فإن الصمت على ما فيه من المشقة أفضل من اطلاق اللسان بالكلام على جهة التحصيل ولذلك ((فقد قيل الصمت زين للعالم وستر للجاهل)) (6)، فمن لا زَم الصمت فقد اختار ذلك أما بجهل أو بعلم، فإن صمت بعلم فقد نطق بصدق وإذا صمت بجهل فقد كذب (7)

وفي مقام معاملة الصديق والعدو يقدم الجاحظ مكنون ذخيره فيشير إلى ما يجب الاتصاف به تجاه كل منهما ((اعلم أن الذي تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك؛ فالصديق وجه معاملته المسالمة، والعدو وجه معاملته المداراة والمواربة. والمسالمة والمداراة هما ضدان يتنافيان، يفسد هذا ما أصلح ذلك، وكلما نقصت من أحد البابين زاد في صاحبه، إن قليل فقليل، وإن كثير فكثير، فلا تسلم بالمواربة صداقة ولا تظفر بالعدو مع الاستسلام إليه. فضع الثقة في موضعها وأقم الحذر مقامه وأسرع إلى التفهم بالثقة ولا تبادر إلى التصديق ولاسيما - بالمحال من الأمور)) (8)

يحمل النص ملاحظة جديرة بالانتفات إليها؛ إذ تلقي الضوء على - ما هو بالأحرى - السؤال الجوهرى المتعلق بمستوى الوعي الذي يحمله المرء والذي ركز على صفة التعامل والتواصل ليس على وفق شروط

على عهده، ورسم لهم بها خطة منجحة لسياسة الناس، مؤثراً لهم السلامة والتماس أسباب النجاة من مكابدهم، والوقوع فيما ينصبونه لهم من أشراك المخاتلة، يصح على هذا أن يفيد منها الأفراد الآخرون على تجردهم من السلطان والعدام امتلاكهم لأسبابه، وتلكم الشذرات من هاته المعطيات الانسانية الخصبه نحسب أن مراعاتها والاستهداء بها في مجال معايشة الجماعات والانسجام وإياها - لا لحد يقرب من الموافقة المشينة الملغية لطبيعة الشخصية والمعفية على سماتها وخصائصها، أو المجارة المقيته النازلة على أهواء الجماعات والمذعنة لأميلها- قد يجنب المرء مسالك حياته كثيراً من المتاعب، باعتبار أن كل ما تتفتق عنه أفهام الأذكياء ومتطلبي المثل العليا، لا يصادف هوىً ويلقى تسليمها به وإقراراً له في كثير من الحالات؛ فالإنسان ليس شرطاً أن لا ينجر خلال سني حياته الطويلة إلى بعض المهايوي ويتردى في حماة الأخطاء، وقد لا يزداد من ذلك إلا مراساً بالحياة واستفادة من تجاربها وخبراتها فينعجم عوده وتراض فطرته.

لقد وقف الجاحظ أمام الخصائص الانسانية وحللها تحليلاً نفسياً عميقاً، متخذاً مبدأ الأخلاق وطباع الناس التي تولد معهم ويحملونها في حياتهم وسيلة لتحقيق هذه الغاية، ونظرة سريعة إلى نصوصه تكشف عن احتفاله بتدريسها وعنايته بها، فتجدده يكتب ناصحاً على رجا أن يهدي الله من يكتب إليهم لصلاح نفوسهم ولما فيه بعد من صلاح الانسانية، ودل بتلك الرسائل أن نفس الإنسان هي هي على تقادم الحقب والصور ولا مطمع بعد في كمال، وليس في وسع المرء الظفر به والإيفاء عليه من خلوص السرائر واستقامة الطويات أمام محصلة لا مناص من التسليم بها والإذعان لبياناتها الأسر ودلالاتها البالغة: فأما أن تراغ النفوس وتتضرم الأفتدة وتطوى الجوانح على الغيظ، فما تطيق تبديلاً أو تغييراً لسنة الحياة وطباع البشر، أو ميلاً بها عن الجادة القويمة والطريق الرشيد، أو صرفاً لها في خاتمة التحصيل عن التورط في هوى جامع أو نزوع لمطمع فاحش، وما يكسب - بكل ذلك - محاول التبدل والتغيير، والميل والصراف، إلا عداوة من يستهدف من الناس وكرهاتهم، إن لم يشفعوا ذلك باتهامه بالسخف والبهتان في وجهة نظري ومنزع تفكير.

خصائص الطابع الإنسانية ومبدأ الجاحظ - عرض وتحليل

إن أجل عارفة مسداة من لدن الجاحظ الأديب هي أسلوبه، والأسلوب قوام الشخصية ومجلى نفس صاحبا؛ فالعبارة الطلية والأداء الرشيق والمكنة القوية من الاسهاب والتطويل في الكناية والتناول لمختلف الموضوعات يدل على ثقافة عميقة متنوعة المعارف، فكل ما تسطره شباة قلمه نفيس، ولا صلة له البتة بهرف القول على عادة منتحلي سمات الكتاب أولئك الذين يكل وسعهم ويقصر امكانهم عياءً إثر شروعم بتدوين أوليات الموضوع الذي يتوفرون على الخوض فيه، حتى إذا فرغوا من ذلك وتولوا عنه يعمدون في الغالب الأعم، إلى إزجاء هذا اللفظ أو ذلك، في محاولة التذليل على براعتهم في البحث واقتدارهم من الدراسة، فما يوفقون في حمل الآخرين على النظر حيالهم بالإعجاب والإكبار والتسليم لهم بالبراعة النافذة والاقتدار المكين، إنما اللغو والهرف ما تسطره شباة القلم وترسم عندما يُعدم الفائدة ويفتقر إلى الأصالة، ولا يحفل بالجدوى وإسلاف النفع فيما

نهض الجاحظ بمدرسة الأسلوب قرابة جيلين أو أكثر، إثر محاولة ذكية جادة سبقه إليها ابن المقفع، الذي يمكن عده الرائد الأول للدراسات والمباحث باعتماد النثر العربي المرسل أداة موفيه بهذه البغية، متكلفة بها، حيث لم يصح من قبل اطلاق اسم البحث أو الدراسة على توقيعات الخلفاء والأمراء أو حتى الخطب المنبرية التي

الرجال المهذب؟ ثم يقرن الجاحظ كل ذلك بالاستكثار من الأصحاب ذوي المروءة فلم يغفل عن أثر طبائع الصحبة وما تكسبه النفس الانسانية سلباً أو ايجاباً ((والمُرءُ يُصلحُ الجليسُ الصالحُ)) (13) فثمة تأثير وتأثر بالصحبة وللناس من الناس مفاييس وأشباه والاحتكاك بالعادات الحميدة تربيةً بحد ذاته ، ولذلك أكد الجاحظ على شدة ضرر صاحب السوء وعظم خطره؛ فالموانسة لا تكون بمجالسة أهل الريب: ((اعلم أنك مرسوم بسيمياء من قارنت ومنسوب لك أفاعيل من صاحبت ، فتحرز من دخلاء السوء ومجالسة أهل الريب ، وقد جرت لك في ذلك الأمثال وسطرت لك فيه الأقاويل . فقالوا : المرء حيث يجعل نفسه . وقالوا : يظن المرء ما يظن بقربنه ، وقالوا : المرء بشكله والمرء بأليفه ، ولن تقدر على التحرز من جماعة الناس ، ولكن أقل الموانسة إلا بأهل البراءة من كل دنس)) (14) فيصفهم بأهل الريب ويصرح بصفة فعلهم القبيح وهي صفة لازمة لأفعالهم وأبلغ في ذمهم ، لا بل أن الجاحظ يوجب على المرء أن يحرص على ما تتوقف عليه سمعته أمام ثقافة العوام فيتجنب نقاض الفضائل فهي أسرع إلى العلوق بالسنتهم وما يصدر عنهم فيما يُمدح ويُذم ((واعلم أن المرء بقدر ما يسبق إليه يعرف ، وبالمستفيض من أفعاله بوصف ، وأن كان بين ذلك كثير من خلافة ألغاء الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره . فاجهد أن يكون أغلب الأشياء على أفاعيلك ما تحمده العوام ولا تذمه الجماعات. فإن ذلك يعفي على كل خلل إن كان . فيبادر ألسنة الناس فاشغلها بمحاسنك فأنهم إلى كل شيء سراع . واستظهر على من دونك بالتفضيل وعلى نظرائك بالإنصاف ، وعلى من فوقك بالإجلال ، تأخذ بوثائق الأمور. وأزمة التدبير)) (15)

فاذا وضعنا في الحسبان أن الحكمة إنما تقال بدافع الموعظة ، وكانت الموعظة مشتملة على الحكمة (16) فيمكن اعتبارهما الأساس المشترك الذي ينهض عليه مفهوم التعامل مع النفس الانسانية لاسيما أن لفظتي الحكمة والموعظة تتحدد وظيفتهما لغوياً باستحضار ما يرتجى منهما من مفهوم ، ولذلك نجد أن الجاحظ يأخذ بذلك ويدعو إلى الاعتدال في العتاب والترفع عن صغائر الأمور ، فإن كانت معاتبه الاخوان خير من فدهم فإن كثرة العتاب تورث البيغضاء وتبعد المرء عن تحقيق الفضيلة بوصفها ((ملكة اختيار الوسط العدل – لا الحسابي – بين افراط وتفریط كلاهما رذيلة)) (17) ، ولذلك نرك أن الجاحظ يؤكد على ((أن كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراحه كله دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق ، فكن فيه بين أمرين : عاتبه فيما تشتركان في نفعه وضره ، وذلك في الهنات ، وتجافف له عن بعض غفلاته تسلم لك ناحيته . وبحسب ذلك فكن في زيارته ، فإن اللاحاح في الزيارة يذهب بالبهاء وربما أورث الملالة ، وطول الهجران يعقب الجفوة ويحل عقدة الإخاء ويجعل صاحبه مدرجة للقطيعة)) (18) فلم يخرج الجاحظ في حدود تصوره عن سبقه في الإشارة إلى الاعتدال في العتاب فما تكلم عنه في هذا القبيل قد جمعه الشاعر بشار بن برد بقوله (19)

من (الطويل)

إذا كنت في كل الدُّنوب مُعَاتِباً صديقك لم تلقَ الذي لا تُعَاتِبُهُ
فِعْشٌ واحداً أو صلَّ أخاك فإِنَّهُ مُفَارِقٌ ذنْبٍ مرَّةً ومُجَانِبُهُ

فلا شك أن الجاحظ قد نظر إلى العلاقة نفسها منطلقاً من مبدأ أن الخير يكمن فضيلة القصد والاعتدال فيما عنده أبقى للجمام ، وأصون للمرء من الانجرار لجفوة أو عداوة ضارة لخلاف ما تهوى النفس ، لاسيما تلك التي تستجد في أعقاب انهيار صداقة ما كان في الحسبان أن تؤول إلى هذا المال ؛ فالصديق إنما يُعَاتَبُ لينا وبُعَادَر هوناً . ونرى أن الجاحظ قد توقع في رصد هذه الظاهرة المحزنة الدائمة الحدوث

الجاحظ فحسب ؛ ولكن وفق شروط العالم الخارجي وما يتطلبه مقام الحال من مسالمة لصديق أو مداراة لعدو إذ وظف الجاحظ ألفاظ (صديق ، عدو ، مسالمة ، مداراة ، مواربة ، فساد ، صلاح ، ثقة ، حذر) وهي ألفاظ لا تخلو تراكيبيها السياقية من بُعد علائقي مرتبط بالمدلولات النفسية التي تكمن وراء اختيارها وهي ترسم جدلية العلاقة اتجاه الصديق والعدو والتي نفهم من خلالها سر الحاح الجاحظ على صفة التعامل الانساني وتمييزها على أساس التعامل مع الآخر .

وينفذ الجاحظ ببصيرته إلى خصائص طباع النفس الانسانية فينبه إلى عظيم شأن واجب الأخ على أخيه من مودةٍ بقلب ورفقٍ بمال وحسن مدافعةٍ عنه في غيبة ، فالأخ الكريم الكامل المروءة - بحسب القيم الاجتماعية المتعارفة - هو الذي إن غبت عنه خَلَّفَكَ وإن حضرت كنفَكَ.

((واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما يقدّر الحكماء، فقال بها الجاهل في نفسه المختلط في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأريب الحذر ، فلا يدعونك ما ترى من ذلك إلى التضييع والانتكال على مثل تلك الحال، فإن الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، فجاءت المقادير بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمد رأياً وأوجب عزراً ممن عمل بالتقريب وإن اتفقت له الأمور على ما أراد . ولعمري ما يكاد ذلك يجيء إلا في أقل الأمور . وما كثر مجي السلامات إلا لمن أتى الأمور من وجوها . وإنما الأشياء بعوامها .

فلا تكونن بشيء مما في يدك أشد ضناً ولا عليه أشد حذباً منك بالأخ الذي قد بلوته في السراء والضراء ، فعرفت مذاهبه . وخبرت شيمه وصح لك غيبه وسلمت لك ناحيته . فإنما هو شقيق روحك وباب الروح إلى حياتك ومستمد رأيك وتوأم عقلك . ولست منتفعاً بعيش مع الوحدة ولا بد من موانسة . وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإن صفا لك أخ فكن به أشد ضناً منك بنفائس أموالك ، ثم لا يزهدك فيه أن ترى منه خلقاً أو خلقين تكررهما ، فإن نفسك التي هي أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل ما تريد ، فكيف بنفس غيرك . وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره)) (9)

ويسترسل في السياق ذاته ((وقد قالت الحكماء : من لك بأخيك كله ، وأي الرجال المهذب ، ثم لا يمنحك ذلك من الاستكثار من الاصدقاء ، فإنهم جند معدون لك ينشرون محاسنك ويحاجون عنك . ولا يحملنك استطراف صديق ثان على ملالة الصديق الأول ، فإن ذلك سبيل أهل الجهالة ، مع ما فيها من الدناءة وسوء التدبير وزهد الأصدقاء جميعاً في إختائك ، والله يوفئك)) (10)

والممتنع لأراء الجاحظ يجد أنه يؤكد على صفة التغاضي بين الاخوان ويجعل من تحصيلها قاعدة في الحياة ، وبذلك أضفى على هذه الصفة طابعاً ايجابياً ، وقد لا تجانب الصواب في اطار هذا التصور إذا قلنا أن الجاحظ في عبارته (من لك بأخيك كله) على مبدأ تلك الحكمة العميقة من المأثورات الشرعية التي جاء في معناها أن ((ما لا يُدرك كله لا يُترك جُلُه)) (11) ، فالميسور لا يُترك بالمعسور ، فتراه يتمثل بقول للناطقة الذبياتي في إحدى اعتذارياته من النعمان بن المنذر :

من (الطويل)

ولست بمستقبِّ أخاً لا تلمه على شعبي أيُّ الرجال المهذب (12)

فالنص له مساس مباشر بخصائص الطبائع الانسانية وهو من جهة المفهوم دال على الاستفهام الحامل لنفي صفة الكمال عن الرجال (أي

ما يعكس عمق معرفته بخصائص النفس الإنسانية وعلاقتها وميولها وجماعاتها.

ولم تقف مضار افشاء السر عند الجاحظ عند هذا الحد بل أخذت منحى أبعد إلى اجتلاء خصيصة نفسية أخرى شاخصة بإماراتها وهي كرب كتمان السر وصعوبته على النفوس؛ فالأسرار عند الأحرار وديعة، والذي يفضي بسرره قد يشفعه بالاستعهاد فيه والتحذير من نشره مما يعين على اظهاره أكثر إذ ((النهى أغرى لأنه تكليف مشقة والصبر على التكليف شديد، وهو خطر والنفس طيارة متقلبة تعشق الإباحة وتغرم بالاطلاق، ولعل رجلاً لو قيل له: لا تسمح يدك بهذا الجدار وهو لم يسمح به قط غري ان يفعل، وكذلك ما حدث به من السر فلم يؤمر بسرره، ولعله لا يخطر بباله، لأنه موجود في طبائع الناس الولوع بكل ممنوع والضجر بكل محمول)) (24) ولعل الجاحظ أراد أن يخبرنا أن سر الكتمان عائد إلى سلطان الجبلة أو الطبيعة الإنسانية التي يفقدون إليها، ولذلك قيل ((الصدر إذا نفض برأ)) (25) مثلاً مضروباً يؤكد هذه الحال على قدر اختلاف مقادير رزاة الناس وحلومهم وخفتهم. وقديماً قيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر؟ قال: أنا لحدو (26)، فصدر العاقل صندوق سره ولا خير في صدر لا يكرم سره، ومن يجد راحة في إفشاء سره إلى غيره فقد أثم في عقله.

ولعل ملاحظة الجاحظ الذكية هذه أدل على نبوغه وفطنته اتجاه العلاقة المعنوية بين الأصحاب، فهو بذلك قد بز - بالاطلاع بها وإيماء لها - علماء التحليل النفسي ممن توفروا في العقود الأخيرة على دراسة غرائز الإنسان وأطواره وميوله؛ فالكلام والنثررة طبع بشري يغلب المرء ويدفعه أحياناً إلى البوح بما في صدره لأجل التخفيف عن نفسه، ومعلوم أنه لا يمكن التحكم في البوح بتيقظ العقل الذي يعقل لسان صاحبه، وإزاء هذا الطبع وإذا كان لابد من الشكوى أو البوح إذا لم يكن الصبر فلا بد للمرء من اتخاذ الأنيس المأمون ليجأ إليه حين يضيق صدره بالهموم.

والجاحظ الذي عُرف بملاحظاته النافذة في شأن النفس الإنسانية يمضي في تركيز اهتمامه على خصيصة نفسية أخرى لم يخل منها زمن من الأزمنة فيحدثنا عن أسباب مورثات التضامن ويرصد فعلها التأثيري على الناس ((فمن أسباب العداوات تنافس الجيران والقرباب وتحاسد الأشكال في الصناعات، ومن أمثن أسبابهم إلى الشر وأسرها إلى المروءة والعقل وأندحها في العرض وأحطها على الدين، والتشاح على المواريث والتنازع في تخوم الأرضين، فإن اتفق أن يكون بين المتشاكليين في القربة كان السبب أقوى والداء أدوى، وعلى حساب ذلك أن جمعت هذه الخصومة والقربة واستواء الحظ في الصناعة)) (27)

إشارة الجاحظ إلى هذه الخصائص في النفس البشرية والتي لها بالغ الأثر في توليد الخصومة والجفاء بتأسس عليها من المنظور النفسي ما يشي بفطنته في مجال التوافق مع الآخر، ولعل خلف هذه الحقيقة يكمن سر نظرتة إلى الحياة، فليس غريباً بعد هذا أن نجد الجاحظ ينشد للترفع عن الحقد والضغينة التي شكلت في جوهرها نفياً لما ترفضه القيم الاجتماعية.

وهكذا نبغ نهاية المطاف في بسط نصوص الرسائل المختارة وما تحفل به من خصائص وإشارات شكلت ملاحظات بارعة من المؤلف، ولعل قارئ تلك الرسائل يكتشف نفسه في ما يقرأ، قيل أن يكتشف الجاحظ، فصاحب هذه الرسائل كون في انسان، وبقاء في كلمات، وهذه ذروة ما تصبو إليه حرفة القلم لاسيما أن أول ما يتطلبه الناس من حرفة القلم أن تسوغ وجودها بما تقدم من فائدة أو نفع؛ فكل

والتكرار وألم بدوافعها ودواعيها باعتبارها لصيقة بطبيعة الانسان، عالقة بجبلته، دارج عليها هو الآخر، في مختلف الأوقات، وقليل من يستمسك بالحفاظ ويدرع الوفاء وقاء له من أن تنوشه سهامها ((فإنما صارت العداوة بعد المودة أشد لإطلاع الصديق على سر صديقه وإحصائه معايبه، وربما كان في حال الصداقة يجمع عليه السقطات ويحصى عليه العيوب ويحتفظ بالرقاع إرصاداً ليوم النبوة وإعداداً لحال الصريمة)) (20)

ففي هاته الرسالة يتكشف لنا عن باحث جليل في أسرار النفس الإنسانية، فقد أتى فيها على أن العادة لها في كل شيء سلطان و((لكل امرئ من دهره ما تعودا)) (21)، والناس مولعون بإفشاء الأسرار ونشر الأنباء، بشتى الدوافع والأغراض من سعي في النمامم واندفاع في الوشاية أو اجتلاب المنافع والمغانم، ودفع الأضرار والمكاره، ولربما انقلب الصديق فكان أعزف بالمضرة، وليس الجميع يمتلكون الشهامة في الخصومة؛ فالذي يفشي بعض سره ويفضي بدخيلة نفسه لمن لا يستحق بحال أن يكون موضع ثقة ومعمل رجاء، فإنه بذلك يغدو مقسوراً على مجاراة ميوله ومراعاة مشاريعه والاعضاء عن بعض تعدياته وتجاوزاته عليه، في حالة استهدافه بها، ابقاء على السر مطوياً مكتوماً فلا ينتقل إلى صدور أخرى هي أعجز عن كتمانها والاحتفاظ به، فالإفشاء بالسر ربما يعد نوعاً من التعري النفسي - إن صح التعبير- ما يتوجب على المرء أن يراجع ذاته ويدركها فيقدرها حق قدرها قبل أن يلزمه الندم. فكان الجاحظ بما أشار به يقول لنا: ليس أقمن بنا إذاعة السر إذا ضاقت صدورنا به وصار لا غناء لنا عن اطراحه، إلا لمن يشاكلنا في الابتلاء ويمائنا في المعاناة، إن لم ينسجم وإيانا في المشرب والمزاج، فإن لم تتوفر هذه الخاصة، فمن العبث انتظارنا الوفاء ممن وهبناهم سريرتنا ومحضناهم دخيلتنا وكشفنا لهم عن طويتنا في غلظة منا وتلمسنا لبعض حسن الظن، فتكون الشماتة ما سوف نحصد من أغراس ونجتني من ثمر، وعلى هذا النحو يؤكد الجاحظ أن السر ((إذا تجاوز صدر صاحبه، وأفلت من لسانه إلى أذن واحدة، فليس حينئذ بسر بل ذاك أولى بالإذاعة ومفتاح الشر والشهرة. وإنما بينه وبين أن يشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذن ثانية، وهو مع قلة المأمونين عليه - وكرب الكتمان - حرج بالانتقال إليها في طرفة عين. وصدر صاحب الأذن الثانية أضيق وهو إلى إفشائه أسرع وبه أسخى وفي الحديث به أعذر والحجة عنه أدهض، ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني والرابع من الثالث أبدأ إلى حيث انتهى. هذا أيضاً إذا استشهد المُحدث واستكنم وكان عاقلاً حليماً وناصحاً واداً، فكيف إذا أخبر ولم يؤمر بالكتمان وكان ممن يمشي بالنمامم ويحب إفشاء المعاييب، وكان ممن ينطوي على غش أو شحانة أو كان له في اظهاره اجتلاب نفع أو دفع ضرر)) (22)

فالصدور خزائن الأسرار، والشفاة افعالها، والألسن مفاتيحها، وعلى المرء أن يحفظ مفتاح سره، فما يحسن بنا على هذا أن نشط في اللوم والعتب ((فاللوم على صاحب السر أوجب، وعمن أفضى به إليه أدل، لأنه كان مالكا لسره، فأطلق عقله وفتح أقاله وسرحه، فأفلت من قيده ووثاقه وصار هو العبد القن المملوك لم اتئمنه على سره وملكه رق رقبته، فإن شاء أحسن ملكته بحفظ ذلك السر فجراً ناصيته وجعله رهينة ليوم عتبه عليه. وقل من يحسن الملكة)) (23)

لا يخفى على قارئ النص ما تطرحه ثقافة الجاحظ من اعتماد على أسلوب تكرار المعنى الواحد بعبارات متوازنة في تراكيبيها والذي يشكل إيقاعاً لفظياً موازياً لإيقاع المعنى المكرر، فضلاً عن دقة الوصف في تقريب المعنى إلى المتلقي من خلال التشبيه والاستعارة

References

1. Abu Rayan M Ali. *History of Philosophical Thought*. 1st ed. Dar Al-Ma'rifa Al-Jami'iyya, Alexandria, Egypt. 1984.
2. Al-Jahiz Abu Uthman Amr ibn Bahr. *Three Treatises by Al-Jahiz*. Edited by Abd al-Salam Muhammad Harun. Al-Khanji Library, Cairo, Egypt. (n.d. ed.). 1964.
3. Al-Mutanabbi, Abu al-Tayyib. (n.d.). *Diwan of Abu al-Tayyib al-Mutanabbi with the Commentary of Abu al-Baqa' al-Ukbari*. Edited by Mustafa al-Saqqā, Ibrahim al-Ibyari, and Abd al-Hafiz Shalabi. Dar Al-Ma'rifa for Printing and Publishing, Beirut, Lebanon. (n.d.)
4. Bashar ibn Burd. *Diwan of Bashar ibn Burd*. Collected and edited by Muhammad al-Tahir ibn 'Ashur. Algerian Ministry of Culture, Algiers. 1st ed. 2007.
5. Labid ibn Abi Rabi'a. *Diwan of Labid ibn Abi Rabi'a with the Commentary of Al-Tusi*. Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, Lebanon. 1st ed. 1993.
6. Al-Nabigha al-Dhubyani. *Diwan of Al-Nabigha al-Dhubyani*, cited from *Diwan of the Five Poets*. Al-Hilal Press, Cairo, Egypt. (n.d.). 1991.
7. Al-Jahiz, Abu Uthman Amr ibn Bahr. (n.d.). *The Philosophy of Seriousness and Humor*. Edited by Mohammed Ali Al-Zoubi. Dar Al-Shu'un Al-Thaqafiya Al-'Amma, Baghdad, Iraq. (n.d.)
8. Nuwayhid, Nadia al-Jardin. (2003). *Words of Gold*. 3rd ed. Dar Al-Hadatha for Printing and Publishing, Beirut, Lebanon.
9. Sousa, Kamal. (1972). *Introduction to the Science of Temperaments*. 2nd ed. Dar Al-Ma'arif, Cairo, Egypt

شيء يواجهه الإنسان له قيمة في نظره تتصل بفائدته أو ضرره ، وكل شيء يلتقي به يخلق فيه انطباعاً حسناً أو سيئاً ، وهو في حقيقة أمره ، حكم له أو عليه ، وهذا الانطباع أو الحكم متصل بما يجد الإنسان من نفع أو ضرر ، وكل مفيد جميل ، كما يراه الحكيم القديم .

الخاتمة

توصل البحث إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها بما يأتي :

1- شملت الرسائل سياقات عدة دارت جميعها في فلك الاجتماع البشري وصورت سعي الجاحظ إلى صرف النفوس عن الرغائب الساقطة واللذات العارضة.

2- أظهرت الرسائل إدراك الجاحظ بذوق الأديب ما يتصل بخصائص الطابع الإنسانية إذ استأثرت الإشارات النفسية بالنصيب الأوفر من طروحاته التي تستمد قيمتها من توافرها على الواقعية في صياغة الخطاب الأدبي.

3- غلبة توارد الثنائيات التقابلية التي تطلعتنا على كاتب أحس بخصائص النفس الإنسانية إحساساً خاصاً بما أوتي من ملكة تعبيرية ما أكسب تلك الرسائل خصوصيتها التأثيرية النابعة من عمق تجربة كاتبها.

4- حاول الجاحظ الإفادة من الثقافة الشعرية في صياغة أفكاره إذ نجد صدى التناص مع غيره من الأدباء كُتاباً وشعراء ما أثرى تجربته الأدبية وعمق من تأثيرها .

5- غلبة أفعال الأمر في صياغة خطابه الرسائلي ما يؤكد تعلق ذلك بالغاية التوجيهية التي يسعى الجاحظ إلى تحقيقها .

الهوامش

(1) ينظر : فلسفة الجد والهزل: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : د. محمد علي الزعبي، 23 – 63.

(2) . ينظر : المصدر نفسه ، 95.

(3) ينظر : المصدر نفسه ، 139.

(4) . فلسفة الجد والهزل ، 43.

(5) ثلاث رسائل للجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، 79 .

(6) فلسفة الجد والهزل ، 142.

(7) ينظر : مدخل إلى علم الطباع ، د . كمال سوسة ، 208.

(8) فلسفة الجد والهزل ، 47-48.

(9) فلسفة الجد والهزل ، 50 – 51.

(10) المصدر نفسه ، 50 – 51.

(11) كتاب مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي بن سلطان محمد القاري، 1/ 272.

(12) ديوان النابغة الذبياني ، 22.

(13) عجز بيت(من الكامل) للبيد بن أبي ربيعة و صدره (ماعتب الحُرُّ الكريم كنفسه).ديوان لبيد بن أبي ربيعة ، 59.

(14) فلسفة الجد والهزل ، 54.

(15) المصدر نفسه ، 54-55.

(16) ينظر : أدب العرب ، مارون عبود ، 52.

(17) تاريخ الفكر الفلسفي ، محمد علي أبو ريان ، 179.

(18) فلسفة الجد والهزل ، 55.

(19) ديوان بشار بن برد ، 326/1.

(20) فلسفة الجد والهزل ، 81.

(21) شطر بيت من(الطويل)للمتنبي وتكملته (وعاداتُ سيفِ التَّوَلَةِ الطَّعْنُ في العدا).ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ، 281/1.

(22) فلسفة الجد والهزل – كتمان السر وحفظ اللسان ، 71.

(23) المصدر نفسه ، 71.

(24) المصدر نفسه ، 77.

(25) المصدر نفسه ، 68-69.

(26) ينظر : كلمات من ذهب ، ناديا الجردي نويهض ، 383 .